الشعر التعليمى فى العصر السلجوقى

الدكتور علي جواد الطاهر

شعر فى اضيق معانيه ينظم العلوم ويقيدها ليسهل حفظها ويعين على ضبط أصولها ، واذاً ، فأهم صفاته الجفاف وليس له من الشعر غير الوزن والقافية ، ولا يدخل فيه الا تجوزاً ...

وطبيعى أن ينشأ فى مجتمع متحضر يعنى بالعلم والتعليم ، وطبيعى ان يكون ذلك فى العصر العباسى ـ وان شئت الدقة ، فى العصر العباسى الثانى[1] ، اما ما سبق ذلك من حكمة جافة وموعظة وحكاية فهو من باب التمهيد ليس غير ومن باب الشعر التعليمى بالمعنى الواسع .

وأشهر من يذكر من السابقين فى تأريخ هذا الضرب من الشعر عند العرب الناشىء الاكبر (ابو العباس عبدالله بن محمد بن الانبارى .. البغدادى ، المتوفى بمصر سنة ٢٩٣) وله ـ فيما له ـ « قصيدة فى فنون من العلم على روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت »[2] .

ويبدو ان هذا « الشعر » لقى فى العصر السلجوقى نقلة جديدة ؛ فقد

---

(١) وقد وجد فى الغرب لدى امم مختلفة ، وليس غريبا ان يوجد فى اليونان ، وان يكون لهم ـ فيمن كان ـ علم ظل يذكر كلما ذكر الشعر التعليمى ألا وهو هزيود (القرن الثامن ق.م) .. ثم كان للرومان ليكرس ... وكان لكل امة اعلام وآثار ..

ولم تكن لفظة : « التعليمى » فى الدلالة على ضرب من الشعر قديمة عند العرب ، انما اقتبسناها من الغرب مترجمين ددا كتك Didactique التى اقتبسوها من كلمة اغريقية بلفظة مقاربة Didaktikos ويعنى فعلها : « علّم » .

(٢) ابن خلكان ١ : ٤٧١ ـ ٤٧٢ (القاهرة ، مطبعة الوطن) . وللدكتور مصطفى جواد فى العدد السادس من السنة الرابعة (١٩٣٩) من مجلة المعلم الجديد مقال بعنوان « الشعر التعليمى عند العرب وفضل الناشىء الاكبر فى تأسيسه » ص ٤٥٢ ـ ٤٥٨ .

رأينا فيه الى جوار نظم العلوم من فقه ونحو نظما للكيمياء والرؤية الفلسفية والامثال ، ونظما للحكايات على ألسن الحيوانات .

اما الحكم ومحاولة الظهور بمظهر الحكيم فهى غير قليلة فى العصر السلجوقى ، الا اننا نريد ان نكون هنا أقرب الى الاصطلاح الدقيق للشعر التعليمى .

ويذكر ابن الجوزى فى حوادث عام ٤٩٧ : « على بن عبدالرحمن .. ابو الخطاب ابن الجراح ، ولد سنة عشر واربعمائة ، وحدث وأقرأ ببغداد . وكان من اهل الفضل والادب ، وكان من اهل البيوت المعروفة فى الرياسة . وصنّف قصيدتين فى القراءات ، وسمى احداهما بالمكملة ، والاخرى بالمبعدة (؟) . روى عنه أشياخنا[٣] .

ويذكر فى حوادث عام ٥٠٠ : « جعفر بن أحمد بن الحسين بن أحمد ابن السراج أبو محمد القارىء . ولد سنة ست عشرة وأربعمائة ، قرأ القرآن بالقراءات وأقرأ سنين وسمع .. وسافر الى بلاد الشام ومصر .. وكان أديبا شاعرا لطيفا صدوقا ثقة وصنف كتبا حسانا . وقد نظم كتبا كثيرة شعرا فنظم كتاب المبتدأ وكتاب مناسك الحج وكتاب التنبيه وغيره ... »[٤]

ولم يصل الينا شىء من هذه المنظومات .

ولكن ، وصل الينا كتاب له خطورته فى بابه ، هو « ملحة الاعراب » لابى محمد القاسم بن على الحريرى البصرى (صاحب المقامات ـ المتوفى عام ٥١٦) . قال ياقوت « هى قصيدة فى النحو »[٥] ، وهى كذلك ، فلقد بلغتنا ورأيناها تقع فى أكثر من (٣٨٠) بيتا[٦] . وقد بدأها المؤلف بقوله :

اقول من بعد افتتاح القول بحمد ذى الطول شديد الحول

---

(٣) المنتظم ٩ : ١٤٠ ـ ١٤١ ، شذرات الذهب للحنبلى ٣ : ٤٠٧ .

(٤) المنتظم ٩ : ١٥١ ـ ١٥٢ ، ابن خلكان ١ : ١٩٧ (ومن مصادره : الخريدة . وممن أخذ عنه : الحنبلى فى شذرات الذهب ٣ : ٤١١ .

(٥) ارشاد الاريب ١٦ : ٢٧١ .

(٦) والمتيسر لنا منها طبعة مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٥٧/١٩٣٤ (وهى وشروحها وحواشيها) فى ٤٨ صفحة .

وبعده ، فأفضل السلام على النبى سيد الانام
وآله الاطهار خير آل فافهم كلامي واستمع مقالى
يا سائلى عن الكلام المنتظم حداً ونوعاً والى كم ينقسم
اسمع ـ هديت الرشد ـ ما أقول وافهمه فهم من له معقول

باب الكلام

حد الكلام ما أفاد المستمع نحو سعى زيد وعمرو متبع
ونوعه الذى عليه يبنى اسم وفعل ثم حرف معنى

باب الاسم

فالاسم ما يدخله من والى او كان مجروراً بحتى وعلى
مثاله زيد وخيل وغنم وذا وأنت والذى ومن وكم ...

ثم تتوالى ابواب النحو المعروفة : النكرة والمعرفة ، قسمة الافعال ... الاعراب ، وفى هذا الباب يقول :

وان ترد ان تعرف الاعرابا لتقتفى فى نطقك الصوابا
فانه بالرفع ثم الجر والنصب والجزم جميعا يجرى
فالرفع والنصب بلا ممانع قد دخلا فى الاسم والمضارع
والجر يستأثر بالاسماء والجزم بالفعل بلا امتراء
فالرفع ضم آخر الحروف والنصب بالفتح بلا وقوف
والجر بالكسرة للتبيين والجزم فى السالم بالتسكين

ثم الابواب الاخرى ، اعراب الاسم المفرد المنصرف ، الاسماء الستة ، حروف العلة .. ، باب الحروف ، كم الخبرية ، المبتدأ والخبر .. ، الاشتغال .. التعجب ، ان وأخواتها ... النداء ، التصغير .. النسب ، التوابع ... وأخيرا : باب البناء .

وتنتهى « القصيدة » ويقول المؤلف :

وقد تقضت ملحة الاعراب مودعة بدائع الاعراب
فانظر اليها نظر المستحسن وأحسن الظن بها وحسن

وان تجد عيبـــا فسد الخللا فجل من لا عيب فيه وعلا ...

ولا شك فى ان هذه الملحة كانت من الاسس فى نظم الالفيات ، ولـكننا قلما نجد اشارة اليها ، ويبدو ان ألفية ابن مالك[٧] غطت على ما سواها . لانها اوسع ، وأكمل ، وأدق وأكثر سلاسة (نسبيا) .

واننا لم نسمع من مشايخنا شيئا عن ملحة الاعراب ، على انها نشرت مبكرا وطبعت مرارا .

وقد حققها وترجمها الى الفرنسية ونشرها فى باريس عام ١٨٨٤ المسيو ليون بنتو (L. Pinto) [٨] .

وطبعت الملحة طبع حجر وبهامشها تقييدات فى مصر سنة ١٢٩٦ ، ١٢٩٩ ، وطبع حجر بمطبعة الطوخى ١٢٩٦ ، وبمطبعة أبى زيد ١٢٩٩ ثم طبعت طبع حروف ببيروت ١٣٠٢[٩] .

ومن المحتمل جدا ان تكون هذه الطبعات قد تبعتها طبعات .

ويذكر ياقوت ان للحريرى كتاب شرح ملحة الاعراب[١٠] . وقد طبع هـــذا الشرح مرارا : فى بولاق ١٢٩٢ ، مطبعـــة شرف ١٣٠٢ ، والميمنية ١٣٠٦[١١] .

ولعل فى هذا ما يدل على اهتمام جيل المشايخ بمصر بالملحة ، ولعلهم ورثوا هذا الاهتمام عن جيل أسبق .

وعاصر الحريرى فى الفترة السلجوقية شاعر كبير هو أبو اسماعيل الحسين بن على الطغرائى المتوفى عام ٥١٥[١٢] .

---

(٧) أبو عبدالله محمد جمال الدين عبدالله بن مالك ولد سنة ٦٠٠ بجشان ـ احدى مدن الاندلس ، وتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ .

(٨) هذا ما رأيته . ولـكن سركيس فى معجمه ١ : ٧٥٠ يقول : « طبع فى باريس ١٨٨٥ مع شروح وتقييدات باعتناء الموسيو بنتو » ويقول : وطبع باريس أيضا ١٩٠٤ مع ترجمة باللغة الفرنسية .

(٩) سركيس ١ : ٧٥٠ .

(١٠) ارشاد الاديب ١٦ : ٢٧١ .

(١١) سركيس ٧٥٠ .

(١٢) ينظر كتاب : الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى . مجلة كلية الآداب (العدد الاول) .

وكما كان الطغرائى شاعرا معدودا وسياسيا من الصدور بل الوزراء كان « اماما فى صنعة الكيمياء ، وانه لفخور بذلك ، وله فيها عدة مؤلفات منها « مفتاح الرحمة ، ومصابيح الحكمة ... » ويهمنا من آثاره مجموع فيه « مقاطيع فى الصنعة » الفه بعد ذينك الكتابين ، وهو من مخطوطات مكتبة كلية الآداب بالقاهرة[١٣] ونجد فيه « شعرا » عن التراكيب والجسد والفضة والكبريت والزرنيخ والنحاس والزئبق والهواء ـ . ويتحدث عن ماء الحياة فيقول :

يا أيها الباحث عن سرنا ... مستعظما للامر مستكبرا
انظر الى ماء الحياة الذى ... فيه اعاجيب لمن فكرا
فهو لجين خالص منظرا ... وهو نضار خالص مخبرا
وينشر الاموات ان دب البلا ... فيها وصارت رمما دثرا
ويخرق الجسم الذى قد عتا ... على لهيب النار واستكبرا
وغض من يبس الحديد الذى اشـ ... ـتد ولم يذعن لان يكسرا
ولم يدع ظل النحاس الذى ... فيه فاضحى لونه مسفرا ..

وعن الماء فيقول :

فى الماء سر عظيم لا يحس به ... الا الحكيم العليم العارف الفطن
فمرة فى تجاويف العروق دم ... وتارة فى الشراب سائل لبن
وهو الذى صار فى الزيتون مائعه ... زيتا وفى الكرم خمرا فيه يختزن
فيه الحياة لما فيه الحياة من الـ ... أشياء وهو حقير ما له ثمن
رباطه ببخار الارض منعقد ... وبعض جوهره بالبعض مرتهن
بسيطه غير ذى لون وذى ثخن ... وفى تراكيبه التلوين والثخن
قسطاسه مستقيم غير ذى عوج ... والقدر معتدل والوزن متزن

وفى الهواء :

ان الهوا فيه الحياة ... وشأنه شأن عجيب
يخفى ويظهر فعله ... فبعيده دان قريب
لا لون فيه وكله ... لون اذا فطن الاريب ...

---

(١٣) رقم ٢٦١٨٩ .

ومن تراكيبه :

ركب الخلط من حديد ونار ... ونحاس وفضة ونضار
ومياه الكبريت والعكس والشب ... وماء النحار والفرار
رطبة ركبت برطب شديد ... واستفادت منه قتال النار
خلط رطب بيابس صار شيا ... احديا بقدرة الجبار
من بقايا علم النبوة فى الخلـ ... ـق وسر من غامض الاسرار ..

وله فى هذه المجموعة ارجوزه منها :

الحمد لله العلى القادر ... ذى النعم انبواطن الظواهر
ثم الصلاة عدد الامطار ... على النبى [المصطفى] المختار
وبعد فالتركيب سر غامض ... بحر عميق لم يخضه خائض
وهو الذى قد حار فيه الناس ... وحاد عن طريقه القياس
تحالف القوم على كتمانه ... وأضربوا فى الكتب عن بيانه
فكرت عشر حجج كوامل ... فى سره فلم افز بطائل
حتى اذا استولى على الياس ... وطار عن مقلتى النعاس
فزعت فى ذاك الى التضرع ... وهو لمن وفق خير مفزع
نذرت ان اكتمه مكتوما ... سرا بختم ربه مختوما

★ ★ ★

فاعمل بما قلت ولا تخالف ... فانه من افضل المعارف
بيض نحاسا محرقا فهو جسد ... قد زالت الظلمة عنه والحسد
ثم اخلط الدهن بماء البحر ... فانه صابون هذا الامر
يضج فى اداتنا المكتومة ... مدته الموقوتة المعلومة ..

وقد كان للطغرائى فى الكيمياء معجبون ومريدون على مر العصور ، وقد حفظوا مثل هذا الشعر وتداولوه بقدسية ولم يتحدثوا عن صاحبه الا بالامام وبالشهيد .

وانه على أى حال ، يمثل فى هذه المقطوعات نوعا من أنواع الشعر التعليمى .

بينما مثل ابن الهبارية (الشريف ابو يعلى محمد بن صـــالح ٠٠ العباسى)[١٤] نوعا آخر ، فلقد نظم « كليلة ودمنة » وسمّى كتابه « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » ، وكان الـكتاب مشهوراً وتحفظ مكتبات العالم نسخا من مخطوطاته[١٥] ٠ وقد « طبع مع شرح الالفاظ الغريبة على الهامش باعتناء فيض‌الله البهائى وصالح محمد بن ملا حسين على فى بمبى سنة ١٣١٧ ص ٢٢٤ ٠ وطبع قبلا : بمبى ١٣٠٤ بعناية الشيخ نورالدين بن جيواخان وبتصحيح الشيخ غلام حسين بن الفسوح الماجد ملا عبد ابى القاسم »[١٦] ٠

وفى عام ١٩٠٠ نشره الخورى نعمة الله الاسمر بعبدا بلبنان ، وليس فى كلامه ما يشير الى علمه بطبعتى بمبى ٠ والحقيقة ان الاسمر لم يحققه ولم يطبعه ؛ وزعم انه « هذّبه » : « اقدمت على ٠٠ حذف ما فيه من الامثال التى يترفع أهل العصر عن مطالعتها ونظم غيرها مأخوذا من النسخ النثرية [لـكليلة ودمنة] المطبوعة مع نظم ما ذكرت ان الـكتاب خال منه ـ مثل الرجل الخائف من الذئب وهو أول باب الاسد والثور ، ومن بعض فقرات من سائر الابواب ، ومن باب الحمامة ومالك الحزين والثعلب وهو آخر الابواب ـ وأشرت الى ما نظمته بأن وضعته ضمن هذه العلامة « » ٠٠

واذاً ، لا يمكن اعتماد نسخة الاسمر فى الحديث عن « النتائج » ـ وان كانت هى والطبعات الاخرى تدل على اهتمام الجيل السابق وعلى ذوقه ٠

نظم ابن الهبارية نتائج الفطنة فى كرمان (وكانت فى حكم ايرانشاه السلجوقى) وارسله الى صديقه الحـكيم ابى الفرج بن التلميذ ليقدمه الى مجد الملك (أسعد بن موسى صدر الحضرة البركياورقية) ٠٠٠ وقد ذكر

---

(١٤) توفى عام ٥٠٤ وقيل ٥٠٩ ينظر « الشعر العربى فى العصر السلجوقى » ١٢٤ ٠

(١٥) يشير بروكمان الى مكتبة برلين واصاف ٠ وفى لندن نسخة منه ٠ وفى مكتبة المستنصرية مخطوطتان : الاولى تامة ورقمها : ٩٨٣ والثانية ناقصة ورقمها : ٣٢٢ ٠

(٦) سركيس ١ : ٢٧٢ وينظر بروكمان ١ : ٢٩٣ ، تكملته ١ : ٤٤٦ ولم يتيسر لنا الوقوف على هاتين الطبعتين ٠

ذلك فى مقدمة كتابه :

الحمد لله على ما خولا ... من نعمة جاد بها فطولا
حمد مقر بوجوب الحمد ... عليه لله القديم الفرد
وان تكن نعماه فوق حمدى ... فما على العاجز غير الجهد
فارج كل كربة وضنك ... بصاحب الاصحاب مجد الملك
مشيد الدولة شمس الدين ... موئل كل يائس مسكين
الطاهر الاعراق والاخلاق ... وقاسم الآجال والارزاق
ومن علا عن العلاء شانه ... وجل عن دسوته مكانه

★ ★ ★

وأصلح الملك وقد كان فسد ... فهو مكان الروح منه والجسد
فليس للملك من الآلات ... غير ابن موسى سيد الكفاة

★ ★ ★

قد كنت مذ فارقت اصبهانا ... مستبدلا بربعها كرمانا
وصرت عند سيد الملوك ... ايرانشاه موئل الصعلوك
مقيدا بالبر والاحسان ... مستغرقا فى الكرم الكرمانى
يئست من عودى الى العراق ... وقلت للاخوان لا تلاقى[17]
لكن تذكرت ابن موسى المفضلا ... لانه كان الحبيب الاولا

★ ★ ★

لأنظمن النثر فى كليله ... وان غدت خواطرى كليله[18]

واشار الى سبق ابان اللاحقى الى نظم هذا الكتاب ، وقد فضل نفسه عليه[19] ثم تتوالى الابواب ... ويعود فى الخاتمة فيذكر مجدالملك :

تم الكتاب وانقضت ابوابه ... كالدر اذ تزجى به سحابه
باد لكل فاضل صوابه ... مؤدبا ان قبلت آدابه

---

(١٧) العراق : اصبهان ...
(١٨) عن المخطوطة ٩٨٤ ص ٢٧٩ .
(١٩) ومعلوم ان ابان اللاحقى نظم كليلة ودمنة للبرامكة ـ ولم يصل الينا هذا النظم (ينظر عصر المأمون .)

بسعد مجد الملك دام ملكه فوصفه در ولفظى سلكه
حررت فى عشر ليال عقده ولم أطق حتى استعنت جده
نعم ولو انى وقفت النَّفْسا عليه لا غير لكانت خمسا
وليس من فضائلى اعده فانما سهل ذاك سعده
لما غدا بعيده قريبا رأيت ذاك عجباً عجيبا(٢٠)
وقلت ان دولة المشيد وجده فى كل أمر مسعدى
واننى لو رمت رد أمس بسعده عاد بغير لبس
أو رمت حبس الفلك الدوار ورد صنع الليل كالنهار
والبحر لو رددته عن مده والدهر لو منعته عن قصده
لكن ذاك ايسر الاشياء ونلت من غايته رجائى(٢١)

مكان مجدالملك صريح من الكتاب فى مقدمته وخاتمته ، ولكن خطبة مخطوطة مكتبة المستنصرية ٩٨٤ خلت من اسم مجد الملك ، بل ان المؤلف ليذكر بكل صراحة ـ ولا نقول وقاحة ـ انه نظم الكتاب لنفسه ومن أجل خلود الذكر ، ولم يؤلفه من أجل شخص معين وكسب معين ، ولم يكن منه ذلك ترفعا ، ولكن ، لانه لم يجد فى العصر ذا سماحة .

وهذه المقدمة جديدة كل الجدة عن مقدمة النسخ الاخرى ، وهى :

قال حكيم العرب العباسى انى تأملت كلام الناس
فلم اجد لعرب ولا عجم مثل الذى للهند من غر الحكم
وحسبهم وضعهم « كليله » فضيلة ما مثلها فضيله
اخترعوا فيه النهى والحكمة بهمة فى الفضل اى همه
لكننى اذ لم أجد مزيدا عليهم نظمته مجيدا
متبعا فيه « ابان اللاحقى » وليس ـ وهو سابقى ـ بلا حقى
ما قدم العصر مفيدا فضلا قد يسبق الفرع الزكى الاصلا
فان يكن اقدم منى عصرا فاننى الطف منه شعرا
وانما نظمته ليحفظه كل لبيب حفظه قد بهضه

---

(٢٠) عيد النيروز وكان مجد الملك فارسى الاصل .
(٢١) عن المخطوطة ٩٨٤ ص ٢٧٧ .

لان حفظ اللفظ أمر صعب ... وكلفة يعجز عنها القلب
الا على من يحفظ المعانى ... ويقصد الالفاظ بالنسيان
فان يكن نظمه « ليحيى » ... فانني نظمته لأحيا
بالذكر فالذكر حياة دائمة ... بفضله نفس اللبيب هائمه
ولم أجد فى العصر ذا سماحه ... يهتز للحكمة والفصاحه
انظمه من طمعى برسمه ... مترجما ما صغت فيه باسمه
وانما نظمته لنفسى ... والفضلاء ، انهم من جنسى(٢٢)

اذاً ، كيف نوفق بين الامرين ؟ ولا تطول بنا الحيرة ، لاننا نجد على الصفحة ٢٧٧ – ٢٧٨ من المخطوطة ٩٨٤ ان الناسخ يقول :

« كان ابن الهبارية رحمه الله ، لما نظم هذا الكتاب باسم ابى الفضل البراوستانى المستوفى انفذ مسودته الى الحكيم أبى الفرج ابن التلميذ من كرمان ، وكلفه عرضه فى يوم النيروز .

ثم عاد ابن الهبارية وعمل خطبة أخرى للكتاب وأسقط اسم مجدالملك وسماه بنتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة . الا انى كنت نقلت الكتاب من نسخة وصلت الىّ . ثم وقفت على مسودته بخطه ، فقابلت نسختى وصححتها ... »(٢٣) .

---

(٢٢) المخطوطة ٩٨٤ ص ٢ .

(٢٣) المخطوطة ٩٨٤ ص ٢٧٧ – ٢٧٨ « ... وزدت فيها ما كان تخرم وأصلحه الرئيس أبو الفتح هبةالله بن الفضل الكاتب بحسب الطاقة .

ومما جاء على ص ٢٨٩ : « وذكر الرئيس أبو الفتح هبةالله بن الفضل بن صاعد الكاتب ان الشريف انفذ بهذا المصنف وهذه القصيدة السينية :

كتبت على بعدى الى المجلس الشمسى
وخد الضحى طرسى وكحل الرجا نفسى ..

الى معتمد الملك ابى الفرج يحيى بن صاعد بن التلميذ خاله كرم الله وجهه لانهما كانا حليفى وفاء ورضيعى صفاء – ليعرضه على مجد الملك سنة سبع وتسعين واربعمائه [كذا ، ونحن نعلم ان مجد الملك قد قتل سنة ٤٩٢] عند كون مجد الملك صدر الدولة الزكية البركيارقية .

اما لم حدث هذا ؟ فليس ذلك بالامر المستغرب على أخلاق أدباء العصر ، ويمكن عزوه الى ان مجدالملك اسعد بن موسى (ابا الفضل البراوستانى) لم ينفحه بجائزة ، أو ان الجائزة لم تكن ذات بال ... أو انه فعل ما فعل بعد قتل مجدالملك .

ونعود الى الكتاب نفسه ، ويقرر مادته عنوانه : « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » . وان نظم كتاب ما شعراً هو من صميم الشعر التعليمى ، ولنتذكر ما قاله ابن الهبارية نفسه :

وانمـــا نظمتـــه ليحفظـــه كل لبيب حفظه قد بهضه ...

وللوقوف على منهج ابن الهبارية فى نظمه نذكر مثلا ، وليكن من باب الحمامة المطوقة :

.. لما انقضى الكلام قال دبشلم لبيدبا : لقد اتيت بالحكم
وقد علمنا كيف قطع الخائن بين المحبين بقول مائن
فاذكر لنا اخلاق اخوان الصفا وما سمعت عنهم من الوفا
وكيف يبدو حبهم وودهم ثم يدوم عهدهم وعقدهم
فكان قول الفيلسوف بيدبا : خير كنوز المرء اخوان الصبا
والحر لا يرضى من اخوان الصفا وان جفوا معوضة وخلفا
لو تبذل الدنيا له منهم بدل أو قيل بعهم بالخلود ما فعل
لا تخدعن فانما الاخوان على الامور كلها اعوان
كمثل الحمامة المطوقه وقصدها فى كربها الاخ الثقه
الجرذ الناصح للاصحاب السلحفا والظبى والغراب
فقال حدثنى بذاك اسمع ولا تحدث جاهلا ليس يعى
قال نعم كان بأرض صيد مرتعه دشت عليه ريد
بينا غراب ساقط من شجره اذ مر صياد به فأنكره
وقال : ما أبرح من مكانى حتى ارى فعال ذا الانسان
فبسط الصياد فيه الشبكه ونثر الحب بها وتركه
فاجتازت الحمامة المطوقه فنزلت ولم تكن موفقه

ومعهـــا من الحمـــام عده ... فوقعوا اذ لقطوا فى شـــده
فأقبل الصياد وهـــو جـــذل ... قالت لهم اذ جاء وهو مقبل
اجهـــدن حتى تقتلعن الشبكه ... لعلنـــا ننجو فهـــذى هلكه
حتى اذا قلعنهـــا وطـــرنه ... وعاين الصياد تلك المحنـــه
هرول عدوا تحتهن طامعـــا ... فى ان يقعن واستمر تابعـــا
قالت ـ وكانت ذات فهم صـــافى ... ونظـــر فى المشكلات شـــافى
الرأى انا نقصد العمـــرانا ... فاننـــا نخفـــى ولا يرانـــا
فكـــان ما قالت وعـــاد آيســـا ... والبؤس لا يقصد الا البائســـا
وكـــل هـــذا والغـــراب تابـــع ... لـــكل ذاك ناظـــر وســـامع
قالت لهـــن ان بالريف جرذ ... شهما اذا ما احجم الشبل نفذ
وبيننـــا مـــودة وكيـــده ... ونحـــن فى ملمـــة شديده
والرأى أن نقصـــده لعلـــه ... يقطعـــه عنـــا وان يحلـــه
فجئنـــه فنادت المطـــوقه : ... يا زَيرك الحقنى فانى موثقه
فقـــال ما هـــذا وأنت حازمه ... قالت : مقادر القضاء اللازمه
ماذا الذى يدفع عنى حزمى ... كيف اتقـــائى والقضاء يرمى
كيف أحيـــد والقضاء جالبى ... ولم يزل يغلب كـــل غالب
هل فى الورى ممتنع من القدر ... اذ كسفت شمس النهار والقمـــر
الحـــوت فى لجتـــه يصـــاد ... وبالطيـــور يفتـــك الصـــياد
وان من يعطى الركيك الجاهلا ... هو الذى يحمى الجليل الـــكاملا
فرام أن يقطـــع عنهـــا فأبت ... قالت اصـــيحابى فرد ما رأت
فقال لم لا ترحمين نفســـك ... لو تتركينى لهدمت حبســـك
قالت انا رئيســـة الحمـــام ... فمـــا اخليهـــن للحمـــام
حـــق على كل رئيس واجب ... الدفع حـــين تدهم النـــوائب
دون الرعايا تبـــذل النفوس ... ولا يروس قومه الخسيس(٢٤)

---

(٢٤) فى من ٩٨٤ :من جاء بالنفس هو الرئيس . وفى ٣٢٢ « ولا يروس .. »

وفى النفيس يبـــذل النفيس　　من جاد بالنفس هـــو الرئيس
وقـد قضين الحـق اذ اطعننى　　وقمـــن بالواجـــب واتبعننى
على الرعايا للرئيس الطـــاعه　　كمـا عليـه الحفظ للجماعـه
قال لها : هذا يزيد الصاحبا　　والاخ فيك رغبة والراغبـــا
فحلهـــن ومضـين فى مهـــل　　وعـاود الجحر سريعا فدخـل
فعنـــد ذاك رغب الغـــراب　　فى وده ورأيه صواب[٢٥] ...

ولابن الهبارية فى الشعر التعليمى كتاب آخر هو « الصادح والباغم » . الفه بكرمان وانفذه مع ولده الى الحلة هدية الى أميرها سيف الدولة فأجزل صاحب الحلة عطيته وأسنى جائزته[٢٦] .

تضم مكتبات العالم نسخا من مخطوطاته[٢٧] . وقد طبع مرارا : فى مصر سنة ١٢٩٢ ، وفى بيروت (المطبعة الادبية ١٨٨٦[٢٨] ، وفى بغداد مرتين ثانيتهما (مطبعة دار السلام ١٣٤٣) ثم اعيد طبعه بمصر عام ١٣٥٥ .

ومما طبع كتاب باسم « الناغم من الصادح والباغم » وهو جملة أبيات انتخبها شهاب الدين أحمد بن أحمد اسماعيل الحلوانى الخليجى (المتوفى عام ١٣٠٨) وقد طبع ضمن مجموعة للمؤلف بمصر عام ١٣٠٨ .

وفى هذا دليل على اهتمام القدامى بالصادح والباغم وعلى عناية الجيل السابق بهذا النوع من الشعر .

---

(٢٥) ص ١٠٧ ـ من المخطـــوطة ٩٨٤ ، ٩٠ من المخطوطة ٣٢٢ (المدرسة المستنصرية) وتنظر طبعة الاسمر ص ١٢٥ .

(٢٦) ابن خلكـان . وليلاحظ ان صدقه اسس الحله عـــام ٤٩٥ وتوفى عام ٥٠١ .

(٢٧) باريس مثلا . ولابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ كتاب سماه « تغريدات الصادح » ينظر بروكلمان ٢ : ١٥ .

(٢٨) وجاء فى هـــذه الطبعة ان ابن الهبارية « ... المعـــروف بالهبارى .. نسبة الى هبار جده لامه توفى سنة تسعين وأربعمائة هكذا وجدت بالنسخة التى كملت منهـا هـذه النسـخة » والمعلوم ان وفاة ابن الهباركة كانت عام ٥٠٤ وقيل ٥٠٩ .

يستهل ابن الهباية كتابه بـ :

الحمد لله الذى حبانى بالاصغرين القلب واللسان

★ ★ ★

هذا كتاب فيه علم وأدب يفوق انواع القريض والخطب
عملته لسيد الملوك وموئل الملهوف والصعلوك
فجاء مثل الذهب المسبوك سلكت نهجا ليس بالمسلوك
فى نظمه وسبكه ووضعه لا من كلام همنى فى جمعه
بل ابتداعا لصنوف الحكمه بهمة فى العلم اى همه
وضعته مخترعا معناه لملك ما خاب من رجاه

★ ★ ★

انفذت اذ عاق الزمان رحلى نجلى الى مجلسه وفضلى
وهو كتاب حسن خطير ليس له فى فنه نظير

يبتدى الكتاب بجدال بين هندى وفارسى ، كلا يمدح بلاده • ففخر الاول بالشطرنج وفخر الثانى بالنرد ، وبعد ان فخر الهندى « بكليلة ودمنة » روى قصة الناسك واللص الفاتك وروى خلالها قصة الظليم ، وحكى الظليم فى نهايتها قصة البعير والجمال •••

كقصة البعير والجمال والشىء قد يعرف بالمثال
اوقره من الشآم مىره فاستقبلا سرية مغيره
لم يرها من بعدها وغفلته عن امرها وشغله بفكرته
فأبصر البعير ما لم يبصره فقال للجمال وهو ينذره :
انى ارى الخيل الينا تقبل وانثى عن النجاة مثقل
فألق عن ظهرى هذا واركب وانج وان عز النجاء فاذهب
قال له الجمال أفكا تذكر ضجرت اذ انت ثقيل موقر

تريد ان اطرح عنك الحمـــلا لاجل هذا قد سئمت الثقـــلا
قـــال له انظر الى العجـــاج قال له وجـــد فى اللجـــاج
ذاك غبـــار عانة أو قافلـــة او خلسة عن العـــدو جافله
قال وهـــذه نواصى الخيـــل قـــد اقبلت مسرعة كالسيل
قال عسى فيهـــم لنا معـــارف او عـــربى و فتى محـــالف
قال له البعير خـــل الهوسا لا يدفع الخطب لعل وعســى
قال له آخـــذى دون راحتك من ثقله فخل عن وقاحتـــك
قال له البعير وهو يضـــحك هـــذا الرقيع فى كيادى يهلك
وادركته الخيـــل فى مكـــانه وشد فى الاوثق من أشطانه ...

ثم تتوالى قصص مثل : التاجر ، امرأة الراعى ، عامر ومارح ، الاسدين ، زوجة البيطار ، جابر ، الحمار والضرغام ، الذئب والغزالة ، امرأة التاجر ، الطاووس مع البوم ، البقال ، الظليم ، الملك والحجام ، القادر والخباز ...

تعكس هذه الحكايات كثيرا من تحارب الحياة وعظاتها وعبرهـــا وحيلها ـ ان شئت . ويغلب عليها طابع التشاؤم والتبرم بمكايد الناس مع قصـد الى التربية والتعليم والتبصير ودعوة الى الصبر واحتمال المكاره وانتظار القضاء ...

وأهم من هذا أسلوبها فى العرض ، ومنهجها فى القصص ، ان فيها كثيرا من التفنن والطرافة ـ وهى نادرة فى بابها من الشعر العربى .

ثم انها يمكن ان تعكس صوراً من حياة المجتمع وسياسته وقد تكون أكثر « شعبية » من الشعر « القريض » .

يدعى ابن الهبارية بأنه سلك فى الصادح منهجا ليس بالمسلوك . وهذا صحيح فى جملته ، فلم نر قبل ابن الهبارية قصصا مثل هذا (ولم

نر بعده)[٢٩] . ومن الممكن ان يكون ابن الهبارية قد تأثر بكليلة ودمنة . ولكنه لم يذكر ذلك ولم يخبر به وان كان القدامى قد تنبهوا الى شيء منه حتى قال قائلهم انه نظمه على أسلوب كليلة ودمنة[٣٠] . ولا غرو فكثيرا ما ضمنت القصص آراء فى الناس والسياسة وكثيرا ما جاءت على ألسن الحيوانات .

وينتظر القارىء ان يمضى المؤلف على هذا النهج وهذه الطرافه ، ولكنه ما يكاد يجوس خلال « باب الادب » حتى يفجأ ، فيرى الخيال ينحط والمهارة تتدهور ، والطرافة تضمحل ويستحيل الكتاب ضربا من الوعظ الرخيص والحكم اليابسة والاوامر والنواهى ، فيقرأ مثل :

تقول ليس الماجد ... الا القنوع الزاهد
فما اعزّ من قنع ... وما أذل من طمع

ومثل :

لصحبة السلطان ... شرط عظيم الشان
الحفظ للسان ... فى السر والاعلان

ومثل :

فانهض الى المعالى ... واجسر ولا تبالى
وخذ من الزمان ... حظاً فأنت فان
لا بد من موت فلِمْ ... ترضى بجور مهتضم

وهكذا .. وهكذا ...

ويزداد الانحدار ، ويزداد فاذا بك تقرأ فصولا فى : « حكم مع لا الناهية » .

---

(٢٩) وقد يكون شوقى قد تأثر بابن الهبارية (اضافة الى تأثره بلافونتين ...) .
(٣٠) ابن خلكان .

لا تحملـن مِنـه لا تحـدثن سنه
لا تقبـل الدينـه لا تخف المنيـه

وهكذا حتى تبلغ الـ لا الـ ٣١ حيث تبدأ حكم مع من الشرطية :

من خاف سوء العاقبة لم يترك المراقبـه

حتى تبلغ الـ مَن الـ ١٤ فتبدأ « حكم مع ليس » :

ليس على الخير ندم ليس مع الذكر عدم

••• ثم « حكم مع ما النافية وكل » •• و « حكم مع لـكل » ••• الخ •

فى هـذه الابواب كثير من التعليم الخلقى والاجتماعى وحتى السياسى ••• ويقل « الشعر » كلما ازدادت هذه التعليمية ، ومن المحتمل جداً ان يكون هذا « اللعب » من ذوق العصر والعصور التى تلته •

وطبيعى ان يختم ابن الهبارية كتابه بالحديث عن « حاله » مستعطفا صدقة ومادحا ومستجديا :

••• لولاك مـات الناس لولاك عـم الياس
لولاك لم يُرع الادب لولاك لم تُحمَ العرب

★ ★ ★

هـذا كتاب حسن فيه تحـار الفطن
انفقت فيـه مده عشر سنين عـده
منـذ سمعت باسمكا وضعتـه برسـمكا
ولم أزل اهـذبه منقحـا واحسـبه
فى كل يوم كلمه ان اخترع الحكمه
صعب على الرجال فى القـول والفعال
رصعته ترصيعا حتى اتى بديعـا

مثلك فى التحصيل فردا بلا عديل
كلاكما نبيه ليس له شبيه
يرغب فيه الفاضل ويحتويه الجاهل

★ ★ ★

بيوته الفان جميعها معان
لو ظل كل شاعر وناظم وناثر
بعمر نوح التالد فى نظم بيت واحد
من مثله لما قدر ما كل من قال شعر
انفذته مع ولدى بل مهجتى وكبدى
وانت عند ظنى أهل لكل من
وقد طوى اليكا توكلا عليكا
مشقة شديدة وشقة بعيده
ولو تركت جئت سعيا وما وجئت
ان الفخار والعلا ارثك من دون الملا[٣١]
فانعم على كتابى بصالح الجواب

وكان صالح الجواب ان « اجزل عطيته وأسنى جائزته »[٣٢] ولابد من ان يكون لهذه المبالغات الاخيرة التى ختم بها كتابه اثر فى زيادة الجائزة ..

ومعلوم ان لابن سينا حكاية فلسفية عنوانها « حى بن يقظان[٣٣] » . وقد

---

(٣١) الملا ، ابن خلكان : الولد ، طبعة مصر ١٩٣٦ ، بغداد ١٣٤٣ .
(٣٢) ابن خلكان .
(٣٣) طبعها فى ليدن ميكائيل بن يحيى المهرنى فى مدينة ليدن سنة ١٨٨٩ ووضع عليها شرحا مفيدا ... وطبعها المرحوم أحمد أمين (مع حى بن يقظان ابن طفيل والسهروردى) عام ١٩٥٢ (دار المعارف بمصر) ، ١٩٥٨ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

« سئل •• ابن الهبارية •• نظم كلام •• ابن سينا فى « حى بن يقظان »
فقال : لست من اهل ذلك العلم ولا أعرف معانيه ولا تعاطيت فهمه قط •
فالزم ذلك امتحانا ، فأجاب بعد الامتناع فقال :

حى بن يقظان ما حى بن يقظانا سبحان موجد ذاك الشيخ سبحانا
شيخ من البلد القدسى منشأه سرى الينا وحيانا وأحيانا
صاف من الاكدار ما خلطت به العناصر اقذاء وادرانا
رأيته وأنا فى رفقة جعلوا على وصولى الى المقصود اعوانا
فراق لى اذ بدا لى حسن منظره وجئته لاتفاق الجنس عجلانا
اتيته مستمدا من فضائله معنى يكمل من معناى نقصانا
لما رأى قربنا منه ورغبتنا فيه دعانا وناداناوحيانا
لانه والد بر يميل الى اولاده لم يزل باللطف منانا

★ ★ ★

فقال :

وانت فى الرفقاء السوء ممتحن مثل الاسير تعانى الضر الوانا
وانت فان بهم ان لم يعنك هدى وعصمة لم تزل حيران ولهانا

★ ★ ★

جاسوس نفسك فى الجزئى منه ولم يزل على درك الكلى معوانا
ورأس مال القوى العقلية اعتضدت به وقد تشتفى بالسم احيانا

★ ★ ★

توسطا واعتدالا فى السياسة والتـ ـدبير وافرح بهم وصلا وهجرانا
وداو هذا بهذا تنتفع بهما واجعل لهذا على هذاك سلطانا

★ ★ ★

ولست تحظى بمـا أصبحت تطلبه ما دمت من ماء عين الحق صديانا

فان ظفرت بتلك العين فزت به فان فيه لما ترجوه امكانا(٣٣)

وتبلغ هذه المنظومة الفلسفية ١٥٤ بيتا ، يسودها الغموض وتكثر فيها المصطلحات الفلسفية .

---

(٣٤) نقلنا هذه النصوص عن مجلة دانش ، سال سوم طهران ١٣٣٣ حيث نشرها محمد تقى دانش بژوه ، ووردت نسبة المنظومة صريحة الى ابن الهبارية فى مخطوطة استنبول .